قد يُظهره الفتى لامرأته البائسة وأبويها الخيرين من الاشمئزاز والنفور، فتمتلئ نفسها ذعرًا، ولكنها رأت ابنها سعيدًا موفورًا، ورأت امرأته هانئة محبورة، فاطمأنت أول الأمر، ثم لم يلبث اطمئنانها أن استحال إلى شعور غريب، فيه شيء من خيبة الأمل في ابنها؛ فقد كانت تحسب أن له حظًّا من ذوق، وقد كانت تظن أن له نصيبًا من نخوة، وقد كانت تقدر أنه سيثور غضبًا لذوقه الذي امتهن، وحفاظًا لنخوته التي لم يحفل بها أحد من مُزَوِّجِيه، ولكنها ترى ابنها راضيًا ناعم البال، كأنَّه الشاة تنعم بما يقدم إليها من علف فتمرح وتصيح، وهي لا تُقَدِّر أن السكين قد هُيئ لذبحها في بعض المكان. ومهما يكن من شيء، فقد كظمت أم خالد حِدَّة آلامها وخيبة آمالها، وصبرت على ما كانت ترى من سخرية زوجها بها، ومن نظراته تلك التي كان يلقيها إليها من وقتٍ إلى وقت كلما رأى ابنه مسرورًا محبورًا، كأنَّه يقول لها: أرأيت أنك كنت واهمة كل الوهم؟! ألا تعرفين أن كرامة الشيخ لا يعجزها شيء؟! إنها تحول القبح جمالًا، والدمامة حسنًا، والبغض حبًّا، والنفور فتونًا. كظمت أم خالد هذا كله في نفسها، ولكنها لم تكن من القوة وشدة الأيد بحيث تستطيع أن تحتمل بعض ما امتلأ به قلبها الضعيف، فلم تمض على زواج ابنها أيام حتى أحست شيئًا من خمود، وحتى أبغضت القاهرة أشد البغض، ورغبت إلى زوجها في العودة إلى المدينة، فلما بلغت دارها أوت إلى غرفتها، وطالت إقامتها في هذه الغرفة، ولكنها لم تخرج منها إلا إلى القبر.